الفصل الرابع

محاولة بعث علم الكـلام
وما أثاره من جدل وشغب

يحاول الكتاب المقرر فى صفحة ٤١ أن يبعث علم الكلام من جديد . ناثراً قضاياه التى أثارت الجدل والشغب والفرقة بين المسلمين سنين عديدة . فادعى المؤلف أن علم الكلام هو الذى دافع عن عقيدة المسلمين ضد دسائس الأعداء ، ومكائد أهل الزيغ والضلال . فى حين جاءت قضاياه مليئة بالشبهات والمغالطات . وفى نفس الوقت تغافل عن ذكر الحقائق التى لابست نشأة العلم وصحبته فى تطوره . وفيما يلى نجلى الحقائق التى أغفلها الكتاب المقرر حول هذا العلم ، كما نصوب الأخطاء الفادحة التى وقع فيها .

أولا : تجلية الحقائق حول نشأة علم الكلام وتطوره

١ – نشأة علم الكلام وموقف الصحابة والتابعين منه :

كان صحابة رسول الله ﷺ يمتنعون عن الكلام فى المسائل الخاصة بذات الله وصفاته والقدر وغير ذلك . ويسلمون بها كما وردت لقول رسول الله ﷺ « إذا ذكر القدر فأمسكوا » رواه الطبرانى بإسناد

حسن ، وقوله : « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل » رواه الترمذى .

ظهور الخوارج : بعد ذلك ظهر الخوارج . وقالوا بأن مرتكب الكبيرة الذى مات قبل أن يتوب كافر . مخالفين بذلك أهل السنة الذين يقولون بأنه مسلم عاص ، وأن أمره مفوض إلى الله،إن شاء غفر له وإن شاء عذبه .

ظهور المعتزلة : ثم ظهر بعد ذلك المعتزلة فقالوا : إن مرتكب الكبيرة فاسق . وفى منزلة بين المنزلتين (أى بين الكفر والإيمان) . وبعدها كثر الجدل وظهرت الفرق وظهر علم الكلام .

عاصر ذلك ظهور حركة الترجمة : وخاصة من الفلسفة اليونانية،فأثرت فى فكر المعتزلة . مما جعلهم يقولون بنفى صفات الله تعالى وبخلق القرآن وغير ذلك مما يتعارض مع الدين ، وأثار الجدل والفرقة بين المسلمين .

٢ - رفض الإمام أحمد بن حنبل لعلم الكلام :

كـان الخليفة المأمون قد اعتنق مذهب الاعتزال وبطش بمعارضيه ، مما أثار العلماء على المعتزلة . حيث قال فيهم الإمام أحمد : علماء الكلام زنادقة . وقال الإمام مالك (أرأيت من جاءه من هو أجدل منه،أيدع دينه كل يوم لدين جديد) . وقال الإمام الشافعى : (حكمى فى أصحاب الكلام أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم فى القبائل . ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ فى الكلام)

٣ - هزيمة أبو الحسن الأشعرى للمعتزلة :

تمكن الفقهاء من هزيمة المعتزلة وبخاصة بعد موت المأمون . ولكن لم تصبح هزيمتهم نهائية إلا على يد أبى الحسن الأشعرى . حيث لم تقم لهم بعده قائمة . وقد كان الأشعرى اعتزاليا لمدة أربعين عاما . ثم خرج عليهم وهاجمهم مستخدما العقل والنقل فى الرد على أباطيلهم وأباطيل الفلسفات الأخرى .

وقد ذكر الأشعرى سبب تحوله عن مذهب المعتزلة فقال : إنه رأى النبى ﷺ ثلاث مرات فى نومه . يأمره بنصرة الأحاديث فى الرؤية والشفاعة وغير ذلك مما ينكره المعتزلة ويعلق على ذلك د. حمودة غرابة بقوله : أنه يستبعد الكذب على الأشعرى ، لأنه باعتراف جميع الباحثين مسلمين وأجانب قد حكى مذاهب خصومه بأمانة وإخلاص ويقول : لعل الأشعرى أشفق على الدين من تطرف كل من المعتزلة الذين لم يقبلوا إلا حكم العقل وحده فى مسائل الذات والصفات وغيرها من الغيبيات، مما يؤدى بالإسلام إلى الدمار . هذا من جانب

ومن جانب آخر تشدد بعض علماء الحديث . وبعض الحنابلة الذين ازدروا العقل ورفضوا استخدام أدلته وبراهينه فى الرد على المشكلات التى أثارها المعتزلة والمتفلسفة . لذلك فالأشعرى قد يكون استهدى الله فهداه إلى منهجه ، وأيده برؤية رسوله ﷺ ، فكانت عبقريته فى أنه رأى أن السكوت وعدم الرد على هذه المشكلات يزلزل العقيدة ، وأنه يجب الرد عليهم بلغة العصر السائدة وهى الأدلة العقلية بجانب الأدلة النقلية ، لإثبات أن الدين مؤيد من العقل وليس متعارضاً معه [١] .

٤ – عودة البعض إلى التأثر بالفكر اليونانى : وذلك فى القرن الخامس الهجرى

الغزالى هو المازج الحقيقى لعلم الكلام بالمنطق الأرسطى :

فرغم محاولات الفارابى وغيره ممن عمل على مزج الفلسفة اليونانية بحقائق الإسلام . ورغم ما أخذه علم الكلام فى البداية من الفلسفات الأخرى . إلا أن هذا العلم ظل فى جوهره إسلاميا حتى القرن الخامس الهجرى، وبعدها ازداد مزجه بالأفكار اليونانية على يد الإمام الجوينى سنة ٤٨٨ هـ، ومن بعده تلميذه الإمام الغزالى . ومن يومها أصبح علم التوحيد عبارة عن علم كلام، ولكن على النمط الفلسفى اليونانى . أى مزيج من الدين والفلسفة . وكانت غايته هى الدفاع عن العقيدة بالأدلة العقلية المتأثرة بالفكر اليونانى . لذلك فالغزالى يعد هو المازج الحقيقى للمنطق الأرسطى بعلم الكلام . حيث يقول فى مقدمة كتابه « المستصفى » : إن من لا يحيط بالمنطق الأرسطى فلا ثقة فى علومه . واعتبره شرطاً من شروط الاجتهاد . كما اعتبر دراسته فرض كفاية على المسلمين[٢] .

كما يصفه فى كتابه « القسطاس المستقيم » : بأنه يميز بين الحق والباطل ، وأنه ميزان الموازين[٣] أى أنه ميزان لكل الأقيسة العقلية . ويرد ابن تيمية على ذلك بقوله : إن الأمر ليس كذلك ، لأنه لو احتاج الميزان إلى ميزان للزم التسلسل، وللزم وجود ميزان نهائى ننتهى إليه ، ويكون هو محك الصواب والخطأ ؛ وهذا الميزان هو القرآن الكريم[٤] .

٥ – تصدى ابن تيمية لمحاولات التأثر بالفكر اليونانى :

وشاركه فى ذلك علماء الفقه وعلماء أصول الفقه حيث نقدوا الأساس الذى تقوم عليه الفلسفة اليونانية . وخاصة منطقها الصورى النظرى . واستبدلوه بمنطق إسلامى

---

(١) الأشعرى . د حموده غرابه ص ٥٩ .
(٢) القسطاس المستقيم ص ١٨٨ الغزالى .
(٣) القسطاس المستقيم . ص ١٨٨ .
(٤) الرد على المنطقين لابن تيمية ص ٣٧١ .

استقرائى عملى . وقد أخذت أوربا بهذا المنطق الإسلامى فيما بعد على يد « فرنسيس بيكون » ومل وغيرهما ، ويعتبر هذا المنطق الإسلامى هو المعبر الحقيقى عن روح الإسلام . وليس ما يسمى بالفلسفة الإسلامية التى حمل لواءها الكندى والفارابى وابن سيناء وابن رشد. حيث إنهم لا يعبرون إلا عن الفلسفة اليونانية . ويعتبرون نشازا فى الفكر الإسلامى . كيف لا وهم القائلون بعصمة أرسطو وقلدوه تقليدا أعمى[٥] .

ومما قاله ابن تيمية عن المنطق الأرسطى :

إن جمهور المسلمين يعيبونه عيبا مجملا ، لما يرون فيه مما يناقض العلم والإيمان،ويفضى إلى أنواع من الجهل والكفر والضلال[٦] .

وهكذا رفض علماء المسلمين المنطق الأرسطى كلية، ونقدوه ، وعملوا على هدمه ، بل واستطاعوا هدمه ، وأقاموا بدلا منه منطقاً آخر أفضل؛هو المنطق الاستقرائى الإسلامى التجريبى ، الذى أخذ به العلماء التجريبيون (فى الطبيعة والكيمياء والطب وغيره) . وعلى أكتاف هذا المنطق الإسلامى التجريبى قامت النهضة الأوربية ، بعد أن طلقوا تماما المنطق الأرسطى؛لأنه منطق نظرى صورى تجريدى عقيم لا يأتى بجديد . كما رفضه علماء الاجتماع وفلاسفة التاريخ وغيرهم[٧] وأصبح لا يستخدم فى أى علم من العلوم .

٦ - رجوع الغزالى عن رأيه . ومهاجمته للمنطق الأرسطى :

وفى هذا يقول الإمام جلال الدين السيوطى : (إن الغزالى أدخل مقدمة من المنطق اليونانى فى أول كتابه المستصفى زعم فيها أنه لا يثق بعلم إلا من عرف هذا المنطق . وفى آخر كتبه بين أن طريقتهم فاسدة لا توصل إلى يقين . وكان أولا يذكر فى كتبه كثيرا من كلامهم الباطل ، ثم فى آخر أمره بالغ فى ذمهم وبين أن طريقتهم متضمنة من الجهل والكفر ما يوجب ذمها وفسادها . ومات وهو مشتغل بالبخارى ومسلم[٨] .

ثم علق على ذلك الإمام السيوطى بقوله : إن من سلك طريق أهل المنطق كان من المتفيهقين ، وأن معانيهم وألفاظهم فيها من الركة والعى ما لا يرضاه عاقل . وأن ما جاء به الرسول ﷺ ، وما قاله العقلاء مناقض لما قالوه . وأن الإمام الغزالى وصل منتهى أمرهم بعد كلفة ومشقة اقترن بها حسن ظنه بهم ، فتورط فى ضلالهم ، ثم أن تداركه الله بعد ذلك مثل

---

(٥) نشأة الفكر الفلسفى جـ١ ص ١٨ ، ٥٤ ، ١٨٤ د. على سامى النشار .
(٦) مناهج البحث د . على سامى النشار ص ٢٨ .
(٧) مفتاح دار السعادة جـ١ ص ١٦ لابن القيم .
(٨) صون المنطق للسيوطى جـ٢ ص ١٠٤ طبعة مجمع البحوث .

كثير من الفضلاء الذين انكشف لهم من ضلالهم ما أوجب رجوعهم عنهم وتبرأهم منهم وردهم عليهم[٩] .

كما نقل الدكتور عبدالحليم محمود : فى كتابه « الإمام الغزالى » ص ١١٦ قول الغزالى فى مهاجمة المنطق الأرسطى وهو (ربما يستحسن البعض المنطق الأرسطى . ويراه واضحاً لاعتماده على البراهين التى تورث اليقين،فيظن أن ما ينقل عنهم من الكفريات مؤيدة بمثل تلك البراهين فيدخل فى الكفر) . ثم ينقل الدكتور عبدالحليم فى ص ١٢٨ قول الغزالى (إن هذا – أى المنطق الأرسطى – نوع من الاستدراج إلى الباطل ، ولأجل الآفة يجب الزجر عن مطالعة كتبهم ، لما فيها من الغدر والخطر . وكما يجب صون من لا يحسن السباحة عن مزالق الشطوط يجب صون الخلق عن مطالعة تلك الكتب . وكما يجب صون الصبيان عن ملامسة الحيات يجب صون الأسماع عن مختلط تلك الكلمات) . وينقل الدكتور أيضا فى ص ١٣١ قول الغزالى : (إنى قررت شبهتهم إلى أقصى الإمكان ، ثم أظهرت فسادها بغاية البرهان . والحاصل أنه لا حاصل عند هؤلاء ولا طائل لكلامهم) .

ما قاله الغزالى نفسه فى نقد المنطق والمناطقة : فى كتاب المنقذ من الضلال ص ٢١ ، ٢٢ – يقول (وأخيرا آمنت بأنهم – أى المناطقة – مع كثرة أصنافهم ، يلزمهم سمة الكفر والإلحاد ، حيث إن الكل مجانب للحق الذى ينشده بعيد عن الإيمان الذى يبحث عنه . وإن تفاوت الأوائل والأواخر فى القرب منه والبعد عنه)[١٠] .

ويقول أيضا : (ظهر لى قبل الشروع فى نقض آراء الفلاسفة أن أضع كتاباً أشرح فيه علومهم المنطقية دون تمييز بين الصواب أو الخطأ فى مبادئهم .. ثم أفتح بعد ذلك كتاب تهافت الفلاسفة ليتضح برهان ما هو باطل[١١] .

٧ – عودتنا أخيرا إلى الفكر اليونانى والغربى :

ماذا حدث بعد الغزالى ؟ وهل عاد المسلمون إلى المنطق الإسلامى ؟ أم تابعوا دعوة الغزالى الأولى إلى الأخذ بالمنطق الأرسطى ؟

يقول الإمام ابن تيمية : (ولكن بسبب ما وقع فيه الغزالى فى أثناء عمره ، صار كثيرون يدخلون المنطق اليونانى فى علومهم ، حتى صار يُظن أنه لا طريق إلا هذه ، وأنها

---

(٩) نفسه ص ١٠٤ .

(١٠) اعترافات الغزالى لعبد الرحيم أبو العطا البقرى ص ٥٥ .

(١١) تاريخ فلاسفة الإسلام لمحمد لطفى جمعة ص ٦٩ طبعة ١٩٢٧ .

صحيحة عند العقلاء)[١٢] فى حين أن العقلاء وجمهور المسلمين يطعنون فيها لما يرون فى أصولها ما يناقض العلم والإيمان . ويفضى إلى أنواع الجهل والكفر والضلال[١٣] .

ومن مظاهر تأثرنا بالفكر اليونانى والمتبقية حتى يومنا هذا ما ورد فى مثل الكتب التالية :

١ - كتاب الفلسفة للصف الثالث الثانوى الأدبى والذى نحن بصدده .
٢ - كتب العقيدة التى تدرس بالأزهر وعلى رأسها كتاب الجوهرة .
٣ - كتاب « المنطق الأرسطى كما يصوره الإمام الغزالى » للدكتور سيد عبدالتواب، والذى يدرس بكلية الدراسات الإسلامية للفتيات بجامعة الأزهر . والذى يشوه فيه الفكر الإسلامى أشد التشويه لحساب الفكر اليونانى . حيث عرض فيه نماذج مما قاله الغزالى فى مدح المنطق الأرسطى وذلك فى بداية حياة الغزالى خاصة قوله (إن دراسة المنطق اليونانى تعد فرض كفاية على المسلمين) . ولم يشر هذا الكتاب الأزهرى إلى أن الإمام الغزالى قد رجع عن هذا الرأى بعد أن أثبت بطلانه . وهكذا تذبح الحقيقة الآن لصالح الفكر الغربى حتى فى الأزهر حصن الإسلام وقلعته .

ثانيا : الأخطاء الفادحة التى وقع فيها الكتاب حول علم الكلام

١ - إشادته بفكر المعتزلة وحطه من عقيدة أهل السنة والجماعة :

حيث ادعى فى صفحة ٤٦ (أن قول المعتزلة بحرية الإنسان أدى إلى مزيد من التقوى والورع بالتقرب من الله . وأن هذا هو المغزى الحقيقى الذى يريده هؤلاء المفكرون من مذهبهم العقلى) فكيف يمجدهم الكتاب كل هذا التمجيد فى مسألة هم فيها يؤلهون البشر ، وذلك فى قولهم بأن مشيئة الإنسان ليست خاضعة لمشيئة الله تعالى فى فعل الشر . وكيف يوصف المعتزلة بصفات زائدة من التقوى والورع عند مقارنتهم بأهل السنة والجماعة، فى حين أن المعروف تاريخيا أن « المعتزلة كانوا فسقة يتباهون بفسقهم » انظر كتاب الأشعرى للدكتور حمودة غرابه ص ٨٥ .

فما المقصود بهذا التزييف للحقائق ؟ والتعريض بعقيدة الأمة ؟ وإظهارها بأنها ضد العقل، فى الوقت الذى أظهر فيه فرقة المعتزلة الخارجين على إجماع الأمة بأنهم مدرسة العقل ؟

---

(١٢) مناهج البحث د . على سامى النشار ص ١٣٩ .
(١٣) صون المنطق لجلال الدين السيوطى ص ٢٨٧ .

٢ - الزعم بأننا مضطرون إلى استخدام منهج الفلسفة اليونانية :

بحجة حاجتنا إليه للرد على غير المسلمين الذين لا يقرون بما ورد فى الكتاب والسنة . فقد ورد فى صفحة ٤١ بالكتاب المقرر (إن علم الكلام نشأ عندما أقبل المسلمون على دراسة الفلسفة والمنطق اليونانى،وذلك للرد على حجج المهاجمين للدين ببراهين من جنس براهينهم) فى حين أن :

للقرآن والحديث تفسيرات عقلية : تجعلنا لسنا فى حاجة إلى استخدام طرق الفلسفة اليونانية،لأن الآيات القرآنية غنية بذاتها،وتتضمن المنهج القويم للبيان والدفاع عن دين رب العالمين لقول الله تعالى : ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾ **أى أن الله سيريهم الآيات فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتضح لهم أن القرآن حق . وذلك عندما تتطابق البراهين القرآنية مع البراهين العيانية .**

الشرع المنقول يتصادق مع النظر المعقول :

فكما أن أدلة القرآن والسنة تشتمل على الأدلة السمعية النقلية التى تعتمد على منهج الرواية والخبر ، فهى تشتمل أيضا على الأدلة العقلية التى يتم بها الدين علما وعملا . فالإسلام لا يضع العقليين مقابل الذوقيين وفق تقسيم المذاهب الفلسفية الغربية حيث دار الصراع بين النقل والعقل . أى بين رجال الكنيسة والعلماء . ولكن الإسلام يجمع فى كيان الإنسان بين اليقين العقلى المدعم بالبراهين . والتذوق الوجدانى فى وحدة واحدة نفسية متناسقة . ولذلك جمع العلماء عندنا بين العلوم والأعمال المهنية والعبادات والحياة الذوقية . أى أن العلوم النبوية تشمل ما هو سمعى نقلى وما هو عقلى برهانى . فالرسل ضربوا للناس الأمثال العقلية التى وصفها الله بقوله ﴿ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ﴾(١٤) .

أرسل الله الرسل ومعهم الموازين العقلية : التى نميز بها بين الأنبياء الصادقين والمتنبئين الكذبة . ولا يمكن الاستناد إلى عدم تصديق الأنبياء إلى دليل عقلى . فإرسال الرسل من الوقائع والأخبار المشهورة التى يستحيل إنكارها،بدليل أن الأمم تؤرخ بها كميلاد المسيح وهجرة الرسول عليه الصلاة والسلام . ومعروف أن منهج الرسل قائم على أن يأمروا الناس

---

(١٤) الإسلام والمذاهب الفلسفية د . مصطفى حلمى ص ١٢٠ ، ١٢١ .

بعبادة الله وحدة وطاعته . ولم يأمروهم بأن يكتسبوا علماً نظريا بوجود الله وصدق رسله . فالعبرة باتباع الحق الذى يعرفونه وليس مجرد المعرفة . بدليل أن كفار مكة كانوا يعرفون صدق الرسول ولكنهم يكذبونه(١٥) .

وقد بين ابن تيمية (أن اعتقاد الفلاسفة بأن النفس تكمل بمجرد العلم اعتقاد باطل :. لأن النفس لها قوتان . قوة علمية نظرية وقوة إرادية عملية . ولابد لها من كمال القوتين (أى معرفة الله وعبادته) . كما بين أيضا أن موطن زلل الفلاسفة أنهم جعلوا العبادات التى أمرت بها الرسل مقصودها إصلاح النفس ، لتستعد للعلم الذى زعموا أنه كمال النفس . فيجعلون العبادات وسائل إلى العلم . وهذا يسقطون العبادات عمن حصَّل المقصود،وهذا هو الكفر بعينه(١٦) .

وباختصار فإنه عند ثبوت صحة نبوة نبينا محمد ﷺ وأنه خاتم الأنبياء،يترتب عليه الإقرار بأنه أعلم الخلق بالأمور الإلهية،وأقدرهم على بيانها . ولا يصل إلى مرتبته أحد من البشر قط،لا نبى، ولا فقيه،ولا متكلم،ولا فيلسوف .

لذلك يجب التقيد بألفاظ الشرع ومصطلحاته الخاصة،وعدم الخلط بينها وبين المصطلحات الوافدة مع الفلسفات الشرقية أو الغربية،لقوله تعالى : ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ﴾ .

٣ - **الإيمان بألفاظ القرآن واجب شرعى** : وتفضيل غيرها فى قضايا العقيدة غير جائز فألفاظ القرآن الكريم تنزيل من حكيم حميد،وفيها من الحكم والمعانى ما لا تنقضى عجائبه . أما الألفاظ المحدثة مثل (المرونة والتحرر والتشدد والجمود وغيرها) ففيها إجمال واشتباه ونزاع واضطراب فى المعنى ، مما يوقع أصحابها فيما وقع فيه الغزالى من قبل حيث (أخذ مخ الفلسفة وألبسه لحاء السنة) . ولذلك يقول ابن تيمية (إن التعبير عن حقائق الإيمان بعبارات القرآن ومصطلحات الشرع أولى،حتى لا يحدث الخلط بينها وبين المصطلحات الوافدة من هنا أو هناك) .

ولقد كان ابن تيمية محقا عندما وضع يده على عناصر التشابه بين فلسفة أرسطو – الوثنى الاعتقاد – وفلسفة ابن سينا وغيره من الذين حاولوا علاج فلسفة أرسطو ببعض التلفيقات والحواشى لتتحول إلى (إسلامية)(١٧) .

---

(١٥) نفسه ص ١٥٩ .

(١٦) نفسه ص ١٤١ .

(١٧) الإسلام والمذاهب الفلسفية د . مصطفى حلمى ص ١١٥ .

٤ – التشويه المتعمد لمنهج الأشاعرة لحساب المعتزلة :

حيث ذكر المؤلف فى صفحة ٤٣ أن المعتزلة يستخدمون العقل استخداما واسعا مع تأويل النصوص التى تخالف العقل . أما الأشاعرة فقد ذكر عنهم فى ص ٤٨ أنهم يميلون إلى جانب النقل أكثر من جانب العقل .

والحقيقة غير ذلك . فالأشاعرة أثبتو أنه لا يوجد تعارض بين أحكام العقل والنقل . وقالوا بأن الدين مؤيد من العقل،وليس متعارضا معه . ولذلك فمنهجهم هو استخدام العقل والنقل معا فى فهم أصول الدين . وخالفوا المعتزلة الذين استخدموا الأدلة العقلية وحدها فى إثبات مسائل الدين . كما خالفوهم فى اعتبار العقل وحده كافيا لجعل الإيمان واجبا على الإنسان،حتى ولو لم يبعث الله الرسل،بحجة أن الله أوجد فى الكون أدلة على وجوده وأن العقل يمكنه أن يدركها . وأن الإنسان يجب عليه الإيمان بالله بمقتضى هذه الأدلة العقلية وبدون إرسال الرسل . فإذا آمن دخل الجنة وإذا لم يؤمن دخل النار . أما الأشاعرة فيعارضون ذلك ويقولون إن العقل وحده لا يكفى لجعل الإيمان واجبا على الإنسان . بل لابد من مجيء الرسل حتى يتم التكليف . لقوله تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ لأن العقل لا يمكنه أن يصل وحده إلى معرفة أوامر الله ونواهيه . وحتى إذا تمكن العقل وحده من الوصول إلى معرفة شيء من الخير . فالفرد ليس ملزما به إلا إذا كان الله تعالى قد أمر به .

كما شوه المؤلف الدليل العقلى للأشعرى فى وجود الله فى ص ٤٧ . أما نص كلام الأشعرى الذى غفل عنه المؤلف فنعرضه فيما يلى لأهميته :

قال الأشعرى : (إذا لم يكن من المعقول أن يتحول القطن إلى ثوب منسوج من تلقاء نفسه؛ فليس من المعقول أن ينتقل الإنسان فى أدوار حياته بنفسه . بدليل أن الإنسان وهو فى غاية كماله الجسمى والعقلى لا يستطيع أن يخلق لنفسه حاسة . ولا أن يضيف إلى جسمه عضوا جديدا . فكيف يستطيع وهو فى حال النطفة أن يتحول بذاته إلى مضغة ثم علقة ثم إلى بشر سوى . إذن فلابد أن الذى نقله من حال إلى حال كائن آخر،هو الله تعالى)[١٨] .

٥ – أ – عرض المؤلف منهج المعتزلة فى وصف الله تعالى دون الإشارة إلى عيوبه :

ففى ص ٤٣ ، ٤٤ تجرأ المعتزلة على صفات الله فنفوها . كما نفوا وجود مكان لله أو إمكان رؤيته تعالى فى الجنة . كل ذلك خدمة لمنهجهم العقلى الذى تأثروا فيه بالفلسفة

---

(١٨) الأشعرى ص ٧٦ .

اليونانية . لدرجة أنهم إذا وصلوا إلى نتائج عقلية تخالف النص القرآنى غلبوا العقل وأولوا النص،مثل تأويلهم اليد بالقوة فى قوله تعالى : ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ . وهكذا

لم يعلق المؤلف بشيء على إسراف المعتزلة فى تمجيد العقل : مما أدى بهم إلى الإفراط فى التأويل . مثل تأويلهم الآيات الدالة على رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة فى مثل قوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ . فتكلفوا تأويلا مضحكا قالوا فيه ناظرة بمعنى منتظرة . كما فسروا ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ بنفى الرؤية فى حين أن الإدراك غير الرؤية . كما أسرفوا فى تكذيب الأحاديث النبوية الصحيحة التى تثبت هذه الرؤية . ففتحوا بذلك بابا للطعن فى الدين وإنكار السنة . كما حرموا المؤمنين من أسمى ما يطمعون فيه فى الآخرة وهو رؤية ربهم .

كما ينفى المعتزلة صفات المعانى ص ٤٤،وهى السمع والبصر والعلم والقدرة والإرادة والكلام والحياة ويجعلونها هى هو . أى هى ذاته . فقالوا إن الله ليس له سمع يسمع به ولكنه يسمع بذاته . وليس له علم ولكنه يعلم بذاته . وهكذا . أى يعتبرون الله هو العلم وهو القدرة وهو السمع ... الخ . بحجة أن هذه الصفات لو كانت مضافة إلى الذات لكان الله ناقصا قبل إضافتها .

وهذه مغالطة كان الواجب على المؤلف الرد عليها)لأن نفى صفات الله كالعلم والقدرة وغيرها يخالف البداهة . كما أنه يؤدى إلى نفى كونه تعالى عالما وقادرا وغيرها . لأن انتفاء العلة يؤدى إلى انتفاء المعلول .

ويقول الأشعرى : إن نفى المعتزلة للصفات يرجع إلى اعتقادهم الخاطىء بأن تعدد الصفات يؤدى إلى تعدد الذات . فى حين أننا نعرف بالبداهة أن الصفة غير الموصوف . وإلا صار العلم عالما . والعالم علما . كما ورد فى القرآن ما يثبت أن الله عليم بعلم،وهو قوله تعالى : ﴿ أنزله بعلمه ﴾ فالله هنا يثبت لنفسه العلم . وهو ما ينكره المعتزلة[١٩] .

كما روى أبو داود فى سننه : أن النبى ﷺ قرأ قوله تعالى : ﴿ إن الله كان سميعا بصيرا ﴾ فوضع إبهامه على أذنه والتى تليها على عينه . ومعنى ذلك أن الله يسمع بسمع ويرى بعين .

ب – كما عرض المؤلف منهج الأشاعرة فى وصف الله تعالى مشوها :

ففى مسائل صفات الله الجسمية والمكانية : يدعى الكتاب المقرر ص ٤٨ أن رأى

---

(١٩) أبو الحسن الأشعرى . د . حمودة غرابه ص ٩٤ .

الأشاعرة فيه تردد فتارة يقولون بالتأويل . مما يقربهم إلى المعتزلة)وتارة يقولون بالتسليم مما يقربهم من أهل السنة .

والحقيقة أنهم ليسوا مترددين ولكنهم فريقان ، فريق يقول بالتأويل مثل المعتزلة)وفريق يتوقف عن الكلام والشرح فى مسائل الصفات .

٦ - نظرية الصلاح والإصلاح :

وهى من النظريات الخاطئة للمعتزلة وعرضها الكتاب دون تعليق يحفظ العقيدة)حيث عرض المؤلف ص ٤٥ **تساءل المعتزلة عن أقصى مقدار من الخير يستطيع الله أن** يقدمه للإنسان . ولا يستطيع أن يزيد عليه . فقالوا بأن الله يقدم أقصى الخير وأحسنه ونهايته . ولا يستطيع أن يزيد عليه فى هذا الوقت ، وتسمى هذه الفكرة بنظرية الصلاح والإصلاح .

ولتوضيح ذلك نقول إن المعتزلة يقصدون بهذه النظرية أنه إذا كان هناك أمران . فى أحدهما صلاح الإنسان وفى الآخر فساده . أوجب المعتزلة على الله فعل الصلاح دون الفساد . كما أنه إن كان هناك أمران . فى أحدهما صلاح الإنسان وفى الآخر ما هو أصلح منه . أوجبوا على الله فعل الأصلح . ويعللون ذلك بأن الله لو لم يفعل ذلك لكان عاجزا أو بخيلا أو جاهلا . وهذا غير جائز فى حقه تعالى . لذلك يوجبون عليه تعالى فعل الصلاح والأصلح .

ولكن الأشاعرة يرون : أن الصلاح والأصلح غير واجبين على الله . لقوله تعالى : ﴿ ... ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ﴾ . ومن أدلتهم العقلية أننا لو أوجبنا على الله فعلا من الأفعال لما كان الله مختارا . كما قالوا لو كان فعل الصلاح والأصلح واجبا على الله لما خلق الكافر الفقير المعذب فى الدنيا والآخرة . لأن الأصلح له عدم خلقه أصلا . أو إماتته صغيرا أو سلب عقله .

٧ - نظرية الحسن والقبح ذاتيان :

وهى أيضا من ضلالات المعتزلة التى عرضها المؤلف دون تعليق : حيث يدعى **المعتزلة أن الخير** والشر لا يتبعان الشرع . بل إن الشرع هو الذى يتبع العقل فى تحديد صفات الخير والشر . وحجتهم فى ذلك أن الله عندما أمرنا بأداء عمل فإنه أدرك من قبل الأمر صفات الخير فيه . وعندما نهانا عن عمل فإنه أدرك من قبل النهى صفات الشر فيه . وبناء على ذلك يرون أن صفات الخير والشر والحسن والقبح ذاتيان فى الشىء وأن الإنسان يمكنه بعقله إدراكها . وأنه ملزم باتباع عقله أولا وقبل الشرع .

ويرد أبو الحسن الأشعرى على ذلك بقوله : لو كان الحسن والقبح ذاتيين فى الشىء

لظل الحسن حسنا أبدا ولظل القبيح قبيحا أبدا . ويرى أن الحقيقة غير ذلك . لأن هناك أشياء محرمة على من قبلنا ثم أصبحت غير محرمة علينا .

ويقول د . حمودة غرابة إن رأى الأشعرى أعمق من المعتزلة ، لأن الفعل الحسن لا يكون حسنا لذاته ولكن لما يترتب عليه من نفع . فالصدق مثلا يأمرنا الله به أحيانا لنفعه فيكون حسنا .. وأحيانا أخرى يأمرنا بالكذب لنفعه فيكون حسنا . ولو كان الحسن والقبح ذاتيين فى الشيء لظل الصدق حسنا أبدا ولظل الكذب قبيحا أبدا .

وأيضا الدكتور أحمد أمين عارض المعتزلة قائلا إن الحسن والقبح معانيها نسبية . تتغير بتغير الزمان . فما كان عدلا فى العصور الوسطى مثلا يعد ظلما اليوم . وهكذا(٢٠) .

٨ - فى مسألة حرية الإنسان : المعتزلة يؤلهون البشر ، ويصفون الله بعبارات لا تليق فى حقه تعالى مثل :

أ - نفيهم قدرة الله على فعل الشر ص ٤٤ والمؤلف صامت لا يعلق،فانظر كيف حددوا قدرة الله وجعلوها قاصرة على فعل الخير فقط . فى حين أن الناس عند المعتزلة هم الخالقون لأعمالهم خيرا أو شرا،ومعنى ذلك أن الناس أقدر من الله . لأنهم يخلقون النوعين الخير والشر . فى حين حصروا قدرة الله فى فعل الخير وحده .

ب - قولهم بأن أفعال الإنسان الشريرة لا تخضع لمشيئة الله وقدرته : ص ٤٤ . فكيف يصمت المؤلف أمام هذا القول الذى يتعارض مع قول الله تعالى : ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله ﴾ . ويقول المعتزلة بأن الله لا يريد الشر فى حين أن الشر هو الغالب فى العالم، فيكون معنى ذلك أن الله لا يريد أغلب ما يقع فى ملكه . وهذه صفة الضعيف المقهور .

أليس هذا هو قول فرقة القدرية الكافرة . كما أنه يشبه قول المجوس بأن الشيطان هو الذى يخلق الشر . أى يجعلون الشيطان خالقا مع الله . كما يجعل المعتزلة الإنسان خالقا مع الله . أليس هذا تأليها للبشر .

لكل ذلك انشق الأشعرى على المعتزلة قائلا « إنه لا يجوز لنا أن نوجب على الله شيئا بالعقل . وإن الله يخلق الخير ويخلق الشر ولا يقيد أفعاله صلاح ولا أصلح . كما يرى الأشعرى أن نسبة الفعل إلى العباد لا تتعارض مع نسبته إلى الله . لأن الله هو الخالق لجميع الأسباب التى يقع بها الفعل . وأنه تعالى الخالق لإرادة الإنسان وحريته وقدرته ومشيئته التى فعل بها الفعل . ولهذا يقول الله ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله ﴾ .

---

(٢٠) الأشعرى ص ١٩٠ .

ويقول الأشعرى إن سبب نفى المعتزلة قدرة الله على فعل الشر هو اعتقادهم بأن كل مريد للشر يعتبر شريرا . وهذا خطأ فى رأى الأشاعره بدليل أن ابنى آدم حينما قربا قربانا . وتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر،وأراد هذا الذى لم يتقبل الله قربانه أن يقتل أخاه فقال له ﴿ لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك ..﴾ أى أنه أراد من أخيه أن يقتله . والقتل شر . ومع ذلك لم يكن هو شريرا . وكذلك الله تعالى يخلق الشر ويريده ولا يكون هو شريرا .

جـ - تشويه المؤلف لرأى الأشاعرة فى مسألة حرية الإنسان : حيث ادعى المؤلف فى ص ٤٩ أن رأى الأشاعرة فيه تردد بين المعتزلة القائلين بالحرية وخصومهم القائلين بالجبر .

والحقيقة أن رأى الأشاعرة فى مسالة حرية الإنسان ليس فيه تردد . ولكنهم على رأيين لأنهم فريقان : سلف وخلف . والسلف قالوا إن للإنسان حرية كاملة.ولكنها خاضعة لقدرة الله ومشيئته . أما الخلف فمنهم من قال ان للإنسان حرية ولكنها لا تتعدى مرحلة الكسب (أى الميل)،ومنهم من قال غير ذلك .

والأشاعرة يقفون موقفا وسطا بين المعتزلة القائلين بالحرية الكاملة (الإنسان مخير) . وبين الجبرية القائلين بالجبر (الإنسان مسير) .

والكتاب المقرر تخبط فى هذه النقطة حيث نسب نظرية الكسب إلى أهل السنة فى ص ٤٦ . ثم عاد ونسبها إلى الأشاعرة فى صفحة ٤٩ .

وأخيرا نقول باختصار : إن المحاولات التى بذلها المؤلف فى هذا الموضوع وتهدف إلى إحياء الاعتزال تحت اسم العقلانية إنما تؤدى إلى تمزيق وحدة الفكر الإسلامى الجامع بين العقل والوجدان الدينى .